ماساي مارا استوديو طبيعي...
لا يمكن لمتخيّل هوليوودي تقليده

ماساي مارا. ماذا يمكن أن ينتظرني هناك؟ هل ستكون رائعة أخرى من روائع كينيا؟ عند الصباح تركنا فيرمونت سفاري كلوب متوجهين نحو مطار نانيوكي الداخلي للتحليق نحو جنوب- غرب كينيا حيث تنبسط ماساي مارا.

فاجأني مبنى المطار إذ كان عبارة عن مقهى مشيّد من الخشب و سقفه من القصب يقابله مدرج صغير حطت فيه طائرة صغيرة تتسع لحوالى عشرة ركّاب.

شعرت بأنني فعلاً بدأت أدخل عالم كينيا البسيط و بأن مغامرة مختلفة تنتظرني.

صعدنا إلى الطائرة و ترك لنا ربانها حرية اختيار المقعد، فاخترت المقعد الموجود مباشرة خلف مقعده.

بدا الطيار و مساعده واثقين من خبرتهما و معتادين على التحليق في الأجواء الكينية، و كأن الطيران صار غريزة أو فعلاً فطريًا يقومان به تلقائيًا.

حلّقنا فوق الريف الكيني، و كانت السحب البيضاء تتلاعب بالطائرة فتدخلنا أحيانًا في جوفها الأبيض لتعود و تكشف لنا عن مشاهد عز نظيرها في العالم.

كل شيء كان رائعًا وكانت عيناي ترصدان حركة الرادار من خلال لوحة المعلومات الموجودة أمام ربان الطائرة، و فجأة دخلت الطائرة نفقًا من الغيم ولم أعد أرى سوى الأبيض رصدت لوحة الرادار و وجهي الطيارين، فإذ بي أقرأ Message Failed.

لخمس دقائق حبست أنفاسي خصوصًا أن الطيارين نظرا إلى بعضهما بابتسامة ساخرة، رحت أحللها: هل ضلا طريقهما! هل سيحدث لنا كما حدث في مسلسلLost ! خمس دقائق شعرت بأنها دهر و لم أجرؤ على إعلام أحد من زملاء الرحلة، بل اكتفيت بالتحديق إلى لوحة الرادار إلى أن انفرجت أنفاسي عندما بعث الطيار رسالة ثانية و ظهر على الشاشة Message sent.

هبطت الطائرة في أحد المطارات الداخلية و صعد زوجان برفقة طفليهما.

جلس الولد على المقعد المحاذي لمقعدي وبدا عليه الخوف، تبادلت و إياه أطراف الحديث و أخبرني كل تفاصيل رحلته إلى كينيا و بأنه من أوستراليا و تحديدًا من ملبورن، و لكي أبدد خوفه من المطبات الهوائية علّمته أن ينشد أغنية My dream is to fly بصوت عالٍ كلما تلاعب الهواء بالطائرة، فسألني إذا ما كنت متوجّهة إلى نيروبي و بدا عليه الحزن عندما قلت له إنني سأنزل في ماساي مارا، ربما أراد من يسليه في رحلته فالأطفال يعرفون مصلحتهم!

عندما حطت الطائرة في مدرج ماساي مارا لم أخف دهشتي، فهو أرض بعل. أما صالة الانتظار فهي كوخ صغير من القش موجود وسط الأدغال... قلت في نفسي المغامرة الحقيقية بدأت.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

فأنا لست وسط استوديو صنيعة متخيل هوليوودي، بل وسط عالم حقيقي لم تهندسه عبقرية إنسان ربما لأنها تعجز عن محاكاته.

كان في انتظارنا سائق من منتجع مارا إنتربيدز Mara Intrepids الذي يبعد عن المطار خمس دقائق

اخترقنا بوابة كبيرة يقف عندها حارس، و كان المنتجع مسوّرًا بالأسلاك، أما بهو الاستقبال فكان عبارة عن كوخ كبير مقسم إلى أجنحة عدة من الخشب.

هنا كل شيء يحاكي الطبيعة و الغابة التي رمينا في وسطها، أما غرف المنتجع فهي خيام ولكنها الأكثر ترفًا و فخامة، رغم أن لا أبواب لها توصد بل قماش يسد بسحّاب يفصل بينك و بين الخارج .

لم أخف سعادتي عن زملاء الرحلة بأني استعدت سنوات طفولتي و مراهقتي حين كنت في الكشافة و أذهب في مخيم كشفي فعلّق محمد:"المخيم الكشفي في ربوع جبال لبنان يا ابنتي مختلف، فهناك لا حيوانات مفترسة" فقلت:" الأمر سيان، فضلا عن أن الحيوانات المفترسة هنا لن تلتهمك فلديها ما يكفي من الطعام".

بعد استطلاع الخيام التي سنبيت فيها تناولنا الغداء.

ورغم أن المطعم في الهواء الطلق فالتدخين ممنوع و هناك مناطق محددة لذلك.

بعد الظهر كنا على موعد مع السفاري.

ركبنا سيارة رباعية الدفع انطلقت بنا في رحاب الغابة و بدأت قطعان الحمار الوحشي و الغزلان و الزرافات تظهر أمامنا، و بدا لي أنها غير مكترثة لوجودنا فربما اعتادت أصوات المحرّكات إذ لم نكن وحدنا من يرصدها بل هناك الكثير من هواة السفاري من كل أنحاء العالم.

و اللافت أن سائقي السيارات يخبرون بعضهم عبر اللاسلكي عن مكان وجود قطعان الحيوان فتجد السائق يذهب إلى المنطقة التي أشار إليها زميله.

فقد توقفنا عند شجرة محددة حيث كان يوجد ثلاثة من نمور التشيتا تستريح غير آبهة بوجودنا.

التقطنا الصور غير آبهين نحن أيضًا، ثم أكملنا سيرنا.

و فجأة توقف السائق و ترجّل من السيارة.

و تبيّن أنه أراد التقاط كيس من النايلون مرمي وسط الغابة، فقلت له هل يستحق أن تعرض حياتك للخطر؟ فرد لا خطر هنا عليّ بل على الحيوانات، ماذا لو ابتعله حمار وحشي؟ سوف يختنق و يموت.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

بالفعل قلت في نفسي إن السكان هنا مدركين لضرورة حماية بيئتهم الطبيعية، فيفيد لم يكن مضطرًا للقيام بذلك، إذ ليس هناك من يراقبه.

بعد ذلك توقفنا تحت شجرة حيث كان غزال معلقًا على غصن، و في مقابل الشجرة يستريح شيتا مستلقيًا على ظهره قرب جدول صغير، فأخبرنا ديفيد أنه يستريح بعد الصيد و يبدو أنه ليس جائعًا، فعلّق فريسته على الشجرة كي لا يأخذها منه أحد.

انتظرنا التشيتا ليقوم ويتبختر أمامنا، لكن عبثًا فقد كان يأخذ قيلولته بسلام.

أكملنا الرحلة و إذ بقطيع الزرافات يظهر أمامنا و ها هي تتبختر واثقة الخطى تمشي ملكة، غير آبهة لأحد.

و فجأة لاحظنا قطيعًا من الغزلان يركض فعرفنا عندها أن هناك لبوة تستعد للصيد.

أخيرًا ظهرت أمامنا زوجة ملك الغابة تتبختر أمامي من دون أن تكترث لوجودي رغم أنه لا يفصلني عنها شيء، و لكن كان في رأسها هدف محدد للصيد، فالغزال الذي كان يراقبها من بعيد أرشدنا إلى طريقها و بالطبع هي أيضًا إلى أن وصلت إلى حرج واختبأت فيه حيث كان قطيع من الآيائل يرعى العشب.

انتظرت اللبوة و نحن انتظرنا معها حوالى الساعة لحظة الصيد المناسبة لنخلدها بعدسات كاميراتنا، عرفت خلالها كم صبر أصحاب البرامج و القنوات التلفزيونية المتخصصة بعالم الحيوان طويلاً.

بدأت اللبوة تتحرك عندما اقترب منها قطيع الآيائل و لكن محاولتها باءت بالفشل، و عادت تجر ذيول الخيبة، و المفارقة إنها لم تبالِ لتعليقاتنا الساخرة، بل أكملت سيرها بهدوء.

و الطريف أننا نحن من نلحق بها و ليست هي من تلاحقنا، تتبعناها، لأنها و بحسب خبرة المرشد سوف تذهب إلى أشبالها الصغار مما يعني أن الأسد أيضًا قريب من المكان.

بالفعل توجهت إلى حرج وضعت فيه أشبالها.

و ما هي لحظات حتى ظهر ملك الغابة يعرض عضلاته المفتولة، و هي لم تقترب منه لأنها كانت ربما خائفة من لومه لها لفشلها في الصيد.

المشهد كان مسرحيًا بامتياز وكل يؤدي دوره بإتقان.

تركنا الأسد و اللبوة يتدبران أمر خيبتهما، و عدنا أدراجنا إلى المخيم فيما بدا ضوء الشمس منكسرًا حين اخترق السحب المتراكمة مضيفًا إلى المساحات الرحبة مشهدًا مهيبًا.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

أسدل الليل ستارته المرصّعة بالنجوم ، و اللافت أن معظم من التقيتهم إما اسمهم ديفيد أو فرانسيس! مفارقة غريبة، فأثناء تناولنا العشاء دعانا ديفيد للتجسس على كوكب المريخ عبر التليسكوب فلم أجد فارقًا كبيرًا بين ما رأيته عبر التليسكوب و عيني المجرّدتين، فقد كان واضحًا إلى درجة أنني شعرت للحظة بأن في استطاعتي لمسه، فالبصر يخدع أحيانًا.

غططت في نوم عميق، و رغم أنني أنام في خيمة تنقطع فيها الكهرباء عند الثانية عشرة لأنها تُغذى من المولّد الخاص، لم أشعر بالخوف بل كنت متشوقة لقدوم الصباح للذهاب إلى قرية ماساي الموجودة في المحمية.

استيقظت صباحًا بكامل نشاطي متأهبة للتعرّف إلى الحياة الأصيلة لقبلية الماساي التي تعيش ضمن المحمية.

ركبنا السيارة متوجهين نحو قرية الماساي برفقة مرشد سياحي من أهل القرية نفسها و يتقن الإنكليزية.

وصلنا إلى مشارف القرية، لم أخف دهشتي لأنني كنت أتوقع قرية فيها كثافة سكانية فيما كانت مؤلفة من حوالي 40 منزلاً أقرب إلى الأكواخ و عدد سكانها لا يتعدى المئة ينتمون إلى سبع عائلات.

الدخول إليها يكون من البوابة الرئيسة غير الموجودة أصلاً و إنما يغلق هذا المدخل ليلاً بأغصان الأشجار اليابسة بعد أن توضع الأبقار في الوسط، وتتحلق البيوت بشكل دائري.

يرتكز سكان هذه القرية في معيشتهم على الزراعة و تربية الأبقار، أي لا يزالون في الطور الأوّل من مراحل التكوّن الحضاري كما وصفه ابن خلدون.

أما أسلوب عيشهم الاجتماعي فيعتمد على تعدد الزوجات الذي قد يصل إلى سبع زوجات، بحسب عدد الأبقار التي يملكها الزوج العريس.

و اللافت أن الزوجة العروس هي التي تبني المنزل و يكون من الطين و أغصان الشجر اليابسة، و هي من ترعى الأبقار و تتولّى الاهتمام بأطفالها، تمامًا كما تعيش بقية الكائنات في المحمية، فهذا أثر الطبيعة في سلوكهم الإنساني.

اللافت جدًا هو وجود مدرسة حجم مبانيها أكبر من القرية نفسها، و أطفال القرية يذهبون إليها يوميًا و يتقنون اللغتين الإنكليزية و السواحلية، فالتعليم الابتدائي إلزامي في كينيا... أعجبني التزام أهل القرية بالقانون رغم أنه ليس هناك شرطي يجبرهم على تطبيقه. فهذه القبيلة تحترم قوانين الطبيعة و قوانين الإنسان بشكل فطري، معادلة فريدة من نوعها.

اصطف مجموعة من شبان الماساي بلباس الشوكاس الأحمر تزين أعناقهم و آذانهم و أيديهم الحلي الأفريقية رحبوا بنا برقصة التحدي المرتكزة على قفز الرجال في الهواء شرط أن تبقى الرجلان متلاصقتين و يفوز من قام بالقفز الأعلى.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

بعد انتهاء رقصة الترحاب التي قدّمتها نسوة القرية، دخلت بيتًا لا تتعدى مساحته 20 مترًا مربعًا رغم المساحة الشاسعة للأرض.

قلت في نفسي ربما رحابة المكان تشعرهم بضرورة المبيت في مكان ضيق يحميهم، أو ربما الزوجة لا تتحمل أعباء بناء منزل كبير يأخذ وقتًا طويلاً قد يستمر لسنوات، و بالتالي يغير العريس رأيه.

لفتني في هذا الكوخ الصغير وجود غرفة خاصة للقيام بالواجبات المدرسية، مما يشير إلى أن فطرة هذه العائلة أهدتهم إلى الطريق التربوي السليم من دون استشارة اختصاصي.

بعد زيارة البيت توجهنا إلى سوق القرية و هو عبارة عن كوخ دائري كبير يقع عند الطرف المقابل للمدخل، مسقوف بالقش و تتوزع على المنصات الموجودة فيه ما ابتدعته أيدي نسوة القرية من حلي أفريقية مشغولة يدويًا من الخرز بأشكال رائعة.

بعد ظهر اليوم التالي عدنا إلى مغامرة سفاري ثانية، و لكن هذه المرّة لم نضطر لانتظار ظهور قطعان الفيلة و الغزلان و وحيد القرن و الأسود، بل كنا نلتقيها طوال مسارنا و السبب أن الأمطار التي هطلت ليلاً جعلت المناخ لطيفًا و بالتالي ربما خرجت تحتفل بالمطر.

دارت السيارة بسرعة للحاق بقطيع الثيران الوحشية الذي سيعبر نهر مارا إلى الضفة المقابلة نحو تنزانيا، لكن استوقفتنا عائلة من الفيلة نصحنا المرشد بعدم التحدّث بصوت عال لأن صدى صوتنا يتلقاه الفيل كما لو أنه دوي انفجار، و بالتالي تثور ثائرته و يطيح كل ما يراه أمامه.

تقيدنا بهذه النصيحة و اكتفينا بالنظر إلى هذه العائلة التي بدت متكافلة لا أحد يخرج عن سربه و الأم تنتظر كل أبنائها و تطمئن إلى أنهم لم يضلّوا طريقهم.

تابعنا المسير إلى أن وصلنا إلى نهر مارا و كان للأسف قطيع الثيران الوحشية قد عبر النهر تاركًا خلفه سحبًا من التراب المتطاير في الفراغ.

ترجلنا من السيارة و رحنا نتأملها و هي تعدو على الضفة المقابلة كأنها في سباق مع الزمن.

غير أن التماسيح كانت مستلقية بكل دهاء تنتظر من يقع فريسة فكيها.

التقطنا الصور للنهر الهادئ و عدنا أدراجنا إلى المنتجع.

في يومي الأخير في ماساي مارا، استيقظت عند الخامسة صباحاً فقد كان في انتظاري نوع مختلف من السفاري و هو سفاري المنطاد. بالفعل الطبيعة هنا تغير وجوهها مع تواتر الليل و النهار.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

فشروق الشمس يبدأ خجولاً يغنّج سكان المحمية ليوقظهم بهدوء فهنا لا حياة عصرية يلهثون وراء تلبية متطلباتها، و كل شيء يسير بحسب نمط الأرض، وحدها الطيور أول من يستيقظ، و يليها ربما حيوان نام جائعًا يبحث عن فريسة تسد جوعه.

توقفت السيارة عند فندق Mada Hotel وكانت هندسته تعكس النمط الإفريقي بكل تفاصيله بشكل مترف.

دوّنت اسمي وكلي حماسة لركوب المنطاد.

صحيح أنني اعتدت التحليق في الفضاء الرحب و إنما ركوب الطائرة لا يشعرك بمتعة التحليق الحقيقية التي يحوزها الطير.

صعدت في السلة التي تتسع لتسعة ركاب و بدأ المنطاد يعلو رويدًا، شعور يعجز اللسان عن وصفه أنا أحلّق من دون ربط حزام و حواجز معدنية و نوافذ أحدّق من خلالها، بل أطير حرة معلّقة بين الأرض و السماء، أراقب انبلاج ضوء النهار الذي يتدرج في تغيّر ألوان السماء من الأسود مرورًا بالرمادي و الأرجواني وصولاً إلى الأزرق المشع، و وجدتني أردد بهمس أغنية I believe I can fly.

و لكن لم أستطعْ أن ألمس السماء كما تقول باقي كلمات الأغنية فهي حلم, كان المنطاد يرتفع و ينخفض بهدوء فوق المحمية و القطعان على أنواعها بدت نشيطة تستعد ليوم طويل فيه الكثير.

حلّق المنطاد فوق نهر مارا الذي بدا لي ينساب بين أروقة الطبيعة الرحبة بسخاء.

هبط المنطاد عند ضفته و عدنا وركبنا سيارة رباعية الدفع لنصل إلى موقع تناول الفطور.

ذكرني هذا المشهد بعشائي في الغابة في ماونت كينيا إنما هنا كل شيء كان مكشوفًا و واضحًا و استغنيت عن معظم حواسي المنبهة لاستمتع بلحظة فريدة قد لا تتكرر.

خصوصًا أن رسم ركوب المنطاد كلفته عالية جدًا، و لكن هذه التجربة جعلتني أفكر جديًا بتعلم هبوط المظلّة.

عدت أدراجي إلى المخيم و كنت قد حزمت حقيبتي الليلة الماضية.

حاولت أن أخزن كل ما تبصره عيناي في ذاكرتي لأتمكن من استحضار هذه الصور ساعة أشاء.

تركت ماساي مارا محلّقة في الطائرة الصغيرة نحو جزيرة لامو، حاملة هذه المرّة معي صورًا تسكنها طبيعة رحبة تتخطى كل الأبعاد البصرية.

صحيح أن السفر إلى مدن تضج بالتاريخ و البذخ الإنسانيين يجعلني مترفة الفكر، لكن التجوال في جغرافيا الطبيعة العذراء منحني بذخًا روحيًا جعلني أحلّق في فضاء العالم الكيني المليء بالألغاز التي لا تنتهي.